والشر . وقد لمح المطران منهم ذلك وخاطبهم بالكردية واستمهلهم ريثما يصلي (١ وقبل ان يفرغ من صلاته اطلق عليه اولئك الظلمة نيران بنادقهم فخرّ صريعاً امام ذاك الكهف . فجمعوا فرقه حجارة جرياً على عادتهم لتكون تلك القائمة دليلاً على ان تحتها دفيناً قتيلاً . هذه كانت آخرة ذاك العلامة والحبر النبيل الذي خدم العلم خدماً جليلة يقدرها له التاريخ على مر الايام . قضى بين جلبات اولئك الجهنميين ووارت جثمانه ايديهم الاثيمة وما زال الى اليوم مسجّى تحت ظل اشجار الزيتون وسط سكون عميق لا يكدره الا نوح الحمائم وزفرات النسيم فتهتز الاوراق المتبللة بندى الصباح وتنفض ما عليها من قطرات فضية فوق قبر الشهيد

البعثة البابوية الى البلاد السوفياتية

حضرة الاب جان كرم اليسوعي

كلّ يعرف ما حلّ بالبلاد الروسية من البلايا والكوارث المزلزلة منذ ضبط فيها أزمّة الحكم حزب السوفيات ومشايعيهم من الجيش الاحمر فذهبت باثمار الوف بل الوف الالوف من اهل تلك الدولة الواسعة الارجاء ذات الطول والعرض

وقد زادت هذه الرزايا بما اصاب تلك البلاد في السنة ١٩٢١ من المحل والجدب بانحباس الامطار عنها مدّة ستة اشهر فمات الزرع وهلك الضرع في عدة مقاطعات كوادي ڤولغا وجبال اورال القديم واوكرانية فبسطت المجاعة اطنابها على رؤوس اكثر من ٣٠ مليوناً من الاهلين واذا بصراخ البائسين دوت له مسامع الدنيا واقشعرّت الابدان اذ كان الموت يحصده كلّ يوم من الوف البشر فاخذت الدول

(١ قال القس اسحاق (ص ٣٨٩) « فجثا وصلّى ثم لبس ثوبهُ وتقلّد صليبهُ وركع وقال : لكم الحرّية ان تفعلوا ما يعجبكم . فأوغلوا في تعذيبهِ وفتكوا بهِ وعادوا بامتعتهِ الى علي والقاضي غير انّ الله جلت احكامهُ انتقم للحال من علي المزور ومن ابنهِ ايضاً فقُتل كلاهما شرّ قتلة

تسعى لاستدراك هذه الآفات المجحفة وكان السابقون في هذه الخلبة الشريفة قوماً من الاميركيين فألفوا لجنة من ١٥٠ شخصاً ثم جمعوا في الولايات المتحدة ٧٠ مليوناً من الدولارات وتقاطروا الى مساعدة اولئك المنكوبين فاتوا بمائة وخمسين مركباً موسوقاً بالقوات المختلفة وألفوا جماعات من اهل البلاد لا يقلّ عددهم عن ٨٠ الفاً لتوزيع تلك الحسنات فامكنهم ان ينتقذوا من مخالب الموت نيفاً وعشرة ملايين من اهل روسية صغاراً وكباراً. وكان مدير تلك الاعمال الجبّارية رجلاً كاثوليكياً عريقاً في دينه وهو الكولونل هسكل (Col Haskell)

ثم حفّت بالاميركان بعثة «الاتحاد الدولي لإنقاذ الاولاد» تحت مراقبة الدكتور نانسن (Dr Nansen). ثم جماعات الصليب الاحمر الدولية فانتشرت هذه الشركات في انحاء روسية وأغاثوا مليوناً و ٢٢ الفاً من الضائرين

ولم يشأ الحبر الاعظم بندكتوس الخامس عشر ان تغيب الكنيسة الكاثوليكية عن مثل هذا السباق الشريف. ومنذ الشهر آب من السنة ١٩٢١ اخذ يفكر في الوسائل الناجعة لمزاج هؤلاء البؤساء. الّا انّ الموت عاجلهُ دون اتمامهِ لهذه النيّة الجليلة فاراد خلفهُ البابا بيوس الحادي عشر ان يحققها منذ اوائل يوم جلوسهِ المأنوس على كرسيّ ائمّة الاحبار فراجع اولياء الامر في روسيّة ونال بعد اللتيّا والتي جواباً مطابقاً لرغبته في ارسال وفد خصوصيّ الى تلك البلاد مع المساعدات الكافية لبضعة الوف من المتضورين فألّف لذلك لجنةً من احد عشر راهباً من اربع رهبانيّات كان منهم ثلثمائة يسوعيين تحت نظارة كاتب هذه الاسطر وكان الوقيّات امّروا سبيلنا بجوازات سفر وتذاكر ارسلوها الينا. فابحرنا من مينا باري في ٢٦ تموز راكبين الباخرة «غاليليا» من شركة «لويد تريستين» وكانت وجهتنا الى البحر الاسود وطريقنا على الاستانة حيث قضينا يومين وفي ٤ آب بلغنا اودسّا

اودسّا

وجدنا مينا المدينة خالياً وانّما كان في حوضهِ الشمالي مركب اميركيّ من جمعيّة الحسنات الى روسيّة (ARA) كان عند وصولنا يفرّغ خمسة آلاف طن من الطحين لقوت الجائعين وكان ايضاً بازائنا طرّاد موسوم بالعدد «٢١٧» اتى برفقة

المركب المذكور صيانة لرعاياه . فأرست باخرتنا بين السفينتين

وما كادت تثبت في مكانها على مسافة عشرة امتار من البرّ حتى احاط بنا عدد عديد من عمّال السوفيات تترهم القمصان وهم مشمّرو السواعد متأبطون قساطير دفاتر تؤذن بوظائفهم وكلّهم من الفلمان الشباب لا يبلغ سنّ اكبرهم عمرًا ثلاثين سنةً . وكان حولهم أخلاط من غوغاء الشعب أتوا ليعاينونا وكان الجنود يتولّون حراستهم

وبعد هنيهة صعد العمّال الى ظهر باخرتنا وطلبوا تذاكرنا فصدّقوا عليها وطلبوا ان يعاينوا كلّ امتعة الركّاب وان يدلّوهم على ما يحملونهُ من الدراهم . أمّا نحن فلم نرضَ بكلا الامرين لمجيئنا رسميًّا برضى دولتي السوفيات والكنيسة الرومانيّة لعمل خيري فضربوا عنّا صفحاً . لكنهم دقّقوا في تفتيش امتعة كل المسافرين بحرص عجيب . وامروهم قبل نزولهم الى البرّ ان يدّعوا عند ربّان المركب دراهمهم والغاية من هذا الامر ان لا يبتاعوا شيئاً من اهل البلاد بل يلتجئوا الى البوليتيك وحدهم في بيعهم وشرائهم لتبقى النقود في حوزتهم دائماً

ثمّ طلبنا منهم ان يمحوا لنا بجوازات لننزل فنزور المدينة فوعدونا بها الى الغد لكنّهم لم يقوموا بوعدهم حتى اليوم الثالث واذ صرّحنا لهم بكدرنا لسوء هذه المعاملة ونحن آتون لخير بلادهم فاعطوا الجوازات لاصغر الركّاب دوننا . فلمّا كان اليوم الرابع بلّغونا بسماحهم لنا بالنزول الى المدينة على زورق اتوا بهِ . فسئم البعض منّا من هذا التأخير ولم يشاؤوا النزول . فنزل الباقون فاخذونا الى ديوان المدينة حيث اعطونا الجواز لزيارة البلد . وقد تأكدنا انهم لم يسمحوا باختلاطنا مع اهل البلد قبل ان يراجعوا رؤساءهم في موسكو وذلك كان السبب لتأجيلنا . فرجعنا الى المركب بعد ساعتين ودعونا كبار الموظفين الى وليمة على المركب لنبدي لهم شكرنا عن لطفهم ولو متأخرًا ونكسب بذلك ثقتهم ونتقرّب اليهم

وقد استفدنا من هذه الاجازات اذ بلغنا انّ باخرتنا التي تُقلّنا الى القرَيم موعد شغلنا لن تُبحر الى سيباستوبول الّا بعد ستة ايّام لسبب اعتصاب البحريين : فانتهزنا هذه الفرصة لتفقّد احوال البلد ونعاين مصائب سكّانهِ . فكان اوّل ما حاولنا زيارتهُ الكنيسة الكاثوليكيّة لنسجد فيها لذلك الذي رحم المساكين وتحنّن

على الجموع (مرقس ٨ : ٢) ونخصّص لهُ خدمتنا ونستطر نعمهُ على البائسين الذين اتينا لتخفيف آلامهم . فسرنا في شوارعَ على جانبيها الاخربة والجدران المتداعية وقد استولى الدمار على منازلها ومطاعمها ومعاهدها العمرميّة سواء اصيبت بقذائف الاعداء ام أخربها اهل الثورة اوانتلع الفقراء اخشابها ليصطلوا بنارها . وقد اصبحت تلك الامكنة اطلالاً ومزابل

كنيسة اودسّا الكاثوليكيّة ذات هندسة بسيطة على خلاف الكنائس الروسيّة التي تستوقف الابصار بقُبَبها البديعة وحليّها الرائعة . فبعد الزيارة لاله القربان طلبنا من الحاجب أن يقودنا الى منزل خادم الكنيسة فرافقنا الى غرفة وجدنا فيها راهباً كابوشيًّا يُدعى فرنشسكو . فلمّا رآنا وعاين زيّنا الغريب اخذه الدَّهَش وسألنا متلعثماً كأنهُ رأى في إثرهِ شُرَط البولشفيك : من أنتم وماذا تريدون ؟ فقلنا لهُ : نحن يسوعيّون ومعنا بعض رهبان ارسلنا الحبر الاعظم لإغاثة المنكوبين من الروسيين . فشدَّ ما كان انذهالهُ لهذا الخبر وهو في بلاد البولشفيك منقطع عن كل ما يجري في العالم . فسألناهُ أليس هو خادم رعيّة اودسّا فانكر وخاف لئلّا نكون من جواسيس البولشفيك فلمّا تحقّق امرنا قال : او لا تعلمون ما حلّ بالكاهن المذكور ؟ قلنا : لا . قال : اتانا يوم امس بعد المغرب ثلثة من المأمورين فقرعوا باب غرفتي فلمّا فتحتها طلبوا ان ادلّهم على غرفة خادم الكاثوليك ونائبهِ فلمّا اشرتُ اليهما اعادوني الى مكاني واقام واحد منهم يراقبني وبعد هنيهة قادوا الكاهنين الى حبس الدائرة البولشفيّة (Tchéka) وقد وجدت غرفتيهما مبعثرتين منهوبتين ولم نعلم سبب توقيفهما واليوم اصبح الناس اوكلُّهم في روع وهلع . أمّا نحن وكنّا سمنا عن حبس تلك الدائرة وما يجري فيهِ من الفظائع ففكرنا في ما ينتظرنا نحن ايضاً وقد صرنا في حوزة هؤلاء الهمج

ثمّ ودّعنا الاب فرنشسكو وذهب ليعود احد المرضى فسلّمنا عليهِ ووعدناهُ بالرجوع اليهِ في الغد . ثم اخذنا نتجوّل في احياء البلد . فكان منظر مدينة اودسّا واهلها يفتّت القلب

فكان يخال لنا انّنا نسير في مقبرة لا في مدينة عامرة فكان الذين نلقاهم في طريقنا يلوحون لنا شاحبي اللون منهكي القوى ضئيلي الابدان كأنّ الجوع قد

اضناهم وامتص دماءهم فلم يدع لهم غير الجلد على العظام وعيونهم غائرة في حجاجها. فكنا نتساءل أهؤلاء بشر احياء ام بالحري اشباح أموات. وقلما كنا نجد شيوخاً او كهولاً فلاشكَّ انَّ الحرب ومدافع البولشفيك والمجاعة قد اكتسحت عددهم الاوفر فلم يبقَ الَّا الشبَّان الذين احتفظت عليهم الدولة الجديدة ليقوموا باعمالها ويجروا على سُنتها. وكنَّا في معاملاتنا مع ارباب الدولة لا نكاد نجتمع مع غير الشبَّان او الفتيان في مقتبل العمر

وكنَّا نرى الازقة والشوا... الاوساخ فيلقي فيها الناس زبلهم وليس هناك عمال ليقوموا بتنظيفها تلك الروائح الكريهة نافرين منها. امَّا اهل البلد فكانوا يسيرو... لتلك الحالة السيئة يغلب عليهم الهمّ والغمّ فينتظرون الموت المصائب المحيقة بهم

وقد وقفنا على قائمة مو... ه في ساحات اودسَّا في شهر حزيران فاذا هو ١٣٥ في ٣ حزيران ثم ٨٥ في ٤ منه ثم ١٤٥ في ٥ منه. علم حزَّ... اطلعنا على جداول اخرى في جهات روسيَّة فاذا كلها تزيد ل... ذلك انَّ ٢٠٠٠٠٠ ماتوا جوعاً في مدة ستة اسابيع في اوكرين... وادي نوما وبلغ هذا العدد مدة ثلث سنوات ستة ملايين فكادت تلك الامة تتحوَّل الى مقبرة

*

وكنَّا اذا عدنا الى باخرتنا في ساعة غدائنا نرى القوم ولاسيما الاولاد يتزاحمون على الرصيف فيصرخون بالروسيَّة: عماه قطعة من الخبز! فيتهافتون على ما نلقي لهم من بقايا طعامنا. وكانت قلوبنا تكاد تتفطَّر وجعاً اذ نرى النساء واطفالهنَّ على الذراع وفي يدهنَّ اناء ينتظرن ان يودَعَ فيه شيء من الطعام لقوت صغارهنَّ فينظرن اليك صامتات جامدات وعلى وجوههنَّ كلّ إمارات الالم. فكنَّا نسرع الى إغاثتهنَّ فتدلُّ دموعهنَّ على شكرهنَّ لنا

وكنَّا احياناً نختلط بهؤلاء المساكين فنلقي عليهنَّ بعض السؤالات لنطَّلع على حقيقة امورهم. ما اسمك يا ولدي؟ — اسمي ڤالوديا (مصغَّر ڤلاديمير) — هل ابوك حيّ؟ — كلَّا. مات من الجوع في الشتاء الاخير — وامك؟ — هي في البيت مريضة بالتيفوس — وهل لك اخوة واخوات؟ — ماتوا كلهم من الجوع فبقيتُ وحدي

وانت يا بُني ما اسمك ؟ — سرجيوس — وهل ابوك وأمك بخير ؟ — كلّا قُتل ابي في الحرب وماتت امي بالتيفوس في الشتاء — واخوتك ؟ — انا وحدي يتيم وغريب . هربت من ضيعتي لأجد في المدينة أكلًا — وما لك لا تذهب الى جماعة الاميركان ليعطوك معاشاً ؟ — انا عمري ١٥ سنة وهم لا يقبلون احداً فوق سنّ ١٤ . وها قد مرّ عليّ يومان لم أذُق طعاماً — فضمنتُ لهُ طعامهُ في أيام اقامتنا في مرفإ اودسّا

وكان بين هؤلاء الصعاليك فتى يجرح نظرهُ قلبنا . كان لابساً قطعاً من أطمار قميص وَسِخ لا يكاد يستر جسمهُ فكان يسير ذهاباً واياباً على الرصيف لعلّهُ يجدِ شيئاً يؤكل كفتات من الخبز او رأس سمكة او حُمامة ما نجت من نهَم الكلاب . وكانت الشمس قد غربت فقلتُ لهُ : ماذا تصنع هنا يا بُني قد قرب الليل اذهب الى بيتك — فنظر اليّ بعينين تترقرق منهما الدموع فقال : عمّاهُ حتى الآن ما اكلتُ شيئاً — وما لك لم تأتِ الى المركب فكنّا اعطيناك طعامك ؟ — كنت أريد ان اطلبهُ لكنّ الحرَس كانوا يطردونني ولمّا كان يُلقى اليّ من المركب شيء يؤكل كان غيري يلتقفهُ فيأكلهُ . كان يقول هذا والحمّى تنفض كل بدنهُ وكان بطنهُ متقفخاً فقلت لهُ : قد اكلت اشياء وخمة . قال : وما العمل وانا اتضوّر جوعاً . فقلت لهُ : هلمّ معي الى المركب فأُعطيك طعاماً . ثمّ تأتي اليّ كل صباح فانا أقوتك . وكانت آذاننا في كلّ مدّة اقامتنا هناك تصطكُّ لسماع هؤلاء الصبيان صارخين : نحن جائعون ! نحن جائعون

وكان اذا احتدم الحرّ ونحن في فصل القيظ نرى الاولاد يركضون فتاتٍ الى شاطئ البحر ليستحمّوا فتُعاين ما صارت اليهِ ابدانُهم من السُّهام والضعف . فنمتعض لهذا المنظر المؤلم الذي يمثل لنا صورة الموتى

وليست المجاعة ضاربةً اطنابها على الفقراء والمساكين فقط فانّ عمال السوفيات نفسهم يعيشون عيشة ضَنكة لا تقوى على سدّ عوزهم . فكنّا نرى حولنا وقت غدائنا عدداً من صغار العمّال (tchinovniks) ينتظرون على باب مخدعنا ليلتقطوا شيئاً من بقايا طعامنا . على انّ الدولة لا تبخل باوراقها المالية معهم فكلٌّ منهم يصيب ملايين من الروبل ولكن اي قيمةٍ لتلك الاوراق ؟ فالملايين منها لا تكفي لابتياع مأكول بضعة ايام . امّا العملة الذهبيّة فقد احتكرها ارباب الدولة لمنفعتهم وفائدة

اصحابهم . وقد قال لي رئيس مركب ضبّاط الفرنسويون مركبه في البوسفور انّ راتبهُ يبلغ ١٤٠ مليوناً في الشهر الّا انّ السوفيات لا يعطونهُ سوى ٢٥ مليوناً التي تساوي مئة فرنك فقط . فكيف العيشة مع هذا فان كانت هذه حالة رئيس مركب فما قولك بسواه

وفي ١٤ آب تمكّن اخيراً مركبنا من تفريغ بضائعه ووسق غيرها فسار بنا الى سيبستوبول فلمّا اقلع كنا نرى جماهير الشعب وخصوصاً الصغار يصرخون بصوت يثير الرحمة في القلوب : عمّاه عمّاه متى ترجعون ؟

٢ سيبستوبول

هي المدينة التي انتشبت فيها تلك الحرب العوان بين دولة المسكوب والدول الثلث المتحالفة فرنسة وانكلترة وتركيّة وانتهت بفتحها عنوةً سنة ١٨٥٥ فاشتهر بالدفاع عنها البطل توتليبن ولا يزال انهُ هناك مشهد يخلّد ذكرهُ وذكر الاميرالين كورنيلوف وباخموف

وليس سيبستوبول مدينةً قديمة وانّما هي الامبراطورة كاترينا احدثتها سنة ١٧٨٦ ودعتها باسم « المدينة الامبراطورية » او « المدينة العظمى » واقامتها شرقيّ اخربة مدينة « خرسون » القديمة عند جون تسطع في مرآة مياهه صورتها البهيّة ويُحدق بها المشاجر فتلوح بمنظر فتّان

وكان السوفيات عارفين بمجيئنا فأتوا ليدعونا الى نزل أعدّوهُ لنا فيه ثلث غُرف لثلثة منّا فلمّا وجدونا تسعةً احتاروا في امرهم وترجّونا ان نبقى في المركب ريثما يجهّزون ستّ غُرف اخرى للباقين . وكان لا نَدْحة لنا من النزول الى البرّ بعد يومين لانّ باخرتنا « اللويد تريستين » لا تربط في سيبستوبول اكثر من هذه المدّة . ونحن موعودون بوصول باخرة روسيّة تنقلنا بعد ثلثة ايّام الى مدينة ثاودوسية غاية سفرنا الواقعة على مسافة عشر ساعات من سيبستوبول . فعرضنا على ربّان اللويد ان ينزل في ثاودوسية فأبى لما يترتّب عليه من أداء الرسوم الجمركيّة لمرفأ تلك المدينة وهي بالغة ١٢٠٠ ليرة ايطاليّة ولا يؤمل ربحاً كبيراً من تجارتها

تقضي علينا ان نبقى في المركب ونستعدّ لنقل اثقالنا الى البرّ وهي لا تقلّ عن

٣٦ طرداً مختلفة الكبر والوزن لعلمنا بما نحتاج اليه في روسية في الضيقات الحاضرة. فرجونا من رؤساء البلد ان يودعوها في ديوان المرفأ (الكمرك) ليسهل نقلها الى المركب المنتظر بعد ثلثة أيام فاجابوا الى طلبنا

وفي اثناء ذلك احببنا ان نلقي النظر على المدينة واحوالها في عهد السوفيات فقيل لنا ان بلاد القرَيم تؤلف جمهوريَّة صغيرة لها بعض الاستقلال في تدبير امورها وإن كانت مرتبطةً بجمهوريَّة روسيَّة السوفياتيَّة العليا. فانَّ لها ادارة احوالها ولجنة تنفيذيَّة خاصَّة وتفويض تامٌ بتجارتها الخارجيَّة

وكان اوَّل من اتى لاستقبالنا كاتب اسرار الادارة وهو لابس قميصاً شمَّر اردانهُ الى كتفهِ فدعاني مع راهب آخر لنركب اوتوموبيلًا ونذهب لزيارة مشهد توتليبن. ثمَّ نزل بقيَّة رفقتنا فاجتمعنا مساء في المنزل المعدّ لنا. وفكَّرنا في اعداد عشائنا وكنَّا هنالك عشرة مع ترجمان كان يرافقنا. وبقي اثنان في المركب اذ كانت وجهة سفرهما الى مدينة يربط فيها مركبنا غير ثاودوسية

وما سلسنا شاء حتى اتانا احد العمَّال يخبرنا انَّهم قد اعدُّوا ١١ عشر غرف نأوي اليها في مدَّة اقامتنا في سيدستوبول فقدرنا شاء سدعوتنا نعمةً ثمَّ قابلنا بالمعروف في معاملاتنا مع اصحابه السوفيات

وقد تعبنا كثيراً قبل ان نجد مأكلًا نظيفاً فانَّ اللحم مشبوه واطعمةً اخرى وخمة لا تؤكل فاكتفينا بما وجدناهُ من طبيخ الجزر والبطاطا المشويَّة مع فاكهة البلد اللذيذة كالتفَّاح والخوخ. وطلبنا شيئاً من الخمر فقدَّموا لنا زجاجة منهُ ثمنها مليونان من الروبل (ستَّة فرنكات) مع زجاجة من الليموناضة تساوي نصف مليون روبل (فرنكاً ونصف). فكان مصروفنا على عشائنا ٨٠ مليون روبل.

ثم اردنا ان ندفع لصاحب المطعم حقَّهُ لكنَّنا لم نجد في يدنا شيئاً من اوراق الروس الماليَّة فقتَّشنا على صرَّاف واذ بيهودي هنالك صرف لنا مئة دولار بمئة مليون روبل كلّها اوراق مختلفة القيمة تتراوح بين ٢٥ روبلًا و ٥٠ مليوناً فكانت محفظتنا تضيق عن احراز كلّ هذه العملة. لولا انَّ مصاريفنا اليوميَّة كانت تخفّفها بزمن قليل. فانَّنا كنَّا نصرف في اليوم ١١٥ مليوناً الى ١٢٠ مليوناً من الروبل. وكنَّا في التالي لا نجد احداً يصرف لنا دراهمنا لخوفهم من ان يرى السوفيات في يدهم نقوداً

فيغصبونهم أيّاها شاءوا ام أبوا

وفي اليوم الثالث من حلولنا في سيبستوبول حضر المركب الروسيّ الذي كنّا في انتظاره وقد دُعي اسمهُ «ايليتش» وهو اسم والد لينين رئيس السوفيات الاكبر. فطلبنا لنا عشرة امكنة في الدرجة الاولى وذلك مجاناً كما صار الاتفاق مع الكرسيّ الرسولي ورئيس الجمهوريّة في موسكو. لكنّ الركّاب كانوا قد سبقونا واحتلّوا تلك الامكنة وبالكدّ والجهد وجدنا امكنة في الدرجة الثانية

ولمّا اردنا نقل امتعتنا المودعة في مستودع الجمرك طلب العمال ان يزوروها على خلاف ما كان الاتفاق مع القاتيكان فقدّمنا لهم قائمة كل طرودنا واثقالنا التي صدّق عليها في رومية ممثّل دولة روسيّة فلم يقنعوا ولم يرضوا الّا بفتحها ليسلبوا منها ما شاؤوا. فتهدّدناهم بالالتجاء الى المراجع العليا واثبتنا لهم انّ معاملتهم هذه اهانةٌ للحبر الاعظم الذي اراد ان يمدّ الى بؤساء روسيّة يد المساعدة ولا بُدّ انّنا نبأنهُ عدم وفائهم بمواعيد دولتهم. فلمّا رأونا مصرّين على مقاومتهم راجعوا بالتليفون رؤساءهم فأتاهم الجواب باطلاق سبيلنا

فركبنا السفينة عصر السبت ١٨ آب واذا هي قذرة خالية ليلًا من النور. امّا غُرفنا فلم نجد فيها لا شراشف ولا لحافاً للنوم ولا ميضأة للغسل حتى سمحوا لنا ان نسكن في محلّ المائدة فأوينا اليهِ وتدثّرنا بثيابنا ليلًا. فاقلعت الباخرة ايليتش التي كان محمولها ٤٠٠٠ طن وسارت سيرًا لينًا فادركنا بعد اربع ساعات مدينة «يلتا» وهي مدينة صغيرة حسنة الموقع جميلة المباني المشيّدة في معاطف جبل يشرف على البحر يصطاف فيها اغنياء الروس وكان فيها للقيصر دارٌ ملوكيّة يسكنها في فصل القيظ مع حاشيتهِ وقد اصبحت البلدة اليوم خاوية خالية

٣ ناودوسية

وبعد ثلث ساعاتٍ اقلعنا الى ناودوسية فبلغناها في منتصف الليل. واذا هناك في انتظارنا احد الآباء اليسوعيين الاميركيّين الاب ولش (P. Walsh) الذي سبقنا في رفقة اللجنة الاميركيّة لمساعدة المنكوبين فكان اعدّ لنا سيّارتين من سيّارات لجنتهِ فاقلّتانا وكل اثقالنا الى نُزُلٍ في المدينة حيث أعدّ لنا عشر غرف لنسكنها مدّة

اقامتنا في ثاودوسية الى ان يتيسّر لنا الرحيل الى مكان شغلنا

فوجدنا تلك الغرف اعشاشاً للبقّ كانت تمتصّ دماءنا فلا يستطاع النوم فيها . وكان في ذاك النزل قوم من الموسيقيين يقضون ساعات من الليل في نَقْر كمنجاتهم فيزيدون على عنائنا

ومما يُضحك انهُ مسهارًا كان خرقَ ثوبي فاردتُ اصلاحهُ فقصدت خادمة المنزل وسألتها الثوب لترقأه فطلبت في السوق خيطاً من لونهِ فلم تجد الّا شعر رأسها فخاطت بهِ ثوبي بكل حذق فأعطيتها ثلثة ملايين روبل . ثمَّ اتخذناها صانعةً لغسل ثيابنا واصلاح امتعتنا ولما ودّعناها كانت تذرف الدموع لفراقنا

تجوّلنا في ثاودوسية وحصلنا على بعض المعلومات عن تاريخها فاذا هي مدينة قديمة خصبة جرت فيها حوادث جيدة . كان فيها للجنويين اولًا ثم للبنادقة مخازن تجاريّة رائجة ولا يزال هناك برجٌ يدعى باسمهم . ومرفأ ثاودوسية من الطف واجمل المرافئ واسع الارجاء كانت تتزاحم فيهِ المراكب التجاريّة التي كانت تنقل منهُ ما بين يديه اطنان القمح الكافية اشباع [illegible] امّا الآن فقد [illegible] فارغاً لا تُرى فيهِ الّا مراكب اللجنة الاميركيّة القادمة لإعانة المنهوفين واغاثة الجائعين

وهذه المدينة قد اصبح قسمُها الشمالي خراباً وهناك كانت احياء التتر . وكانت التلال المجاورة للمدينة تظللها غابات الشجر فقُطعت كلّ اشجارها في الشتاء للاصطلاء فاضحت قفرًا جرداء . امّا الحقول فهملة والكروم الممتدّة الى مسافات بعيدة قد غلب عليها الشوك والعوسج وليس من يكترث لفلاحتها . فلا عجب ان ترزح البلاد تحت اعباء المجاعة

وكان الفقراء يتسارعون الى منزلنا كما في اودسّا طالبين كسرةً من الخبز او قليلاً من الطعام . وربّما اختلط بهم بعض ارباب الثروة سابقاً . وكانت بينهم ارملة احد قوّاد الروس الذي قُتل في الحرب وفي يدها قصةٌ تطلب قوتاً والناس يهزأون بها لاختلال اصاب عقلها من كثرة اوجاعها . فضمنّا لها طعامها . وكذا فعلنا بامرأة احد اساتذة جامعة روسيّة اتت الى هنا هاربةً من المجاعة لتذهب الى الاستانة فقات اوان سفرها وليس من يهتمّ بامرها . وكان بين طالبي المساعدة رجلٌ من الطليان كان سابقاً قنصلًا لدولتهِ ولهُ املاك واسعة فاستلبها كلها السوفيات واخرجوهُ من بيتهِ فنهكت

الاحزان قواهُ واشرف على قطع الرجاء.

وفي غربي المدينة رأس داخل في البحر يشير اليهِ الاهلون خلسةً ولا يلفظون اسمهُ الّا مهامسة خوفاً من الجواسيس فهناكَ رمى السوفيات بالرصاص نحو عشرة آلاف من الجيش الابيض اغلبهم من الضبّاط وافاضل دولتهم رحمهم الله

قضينا في ثاودوسية خمسة أيام ونحن نطلب الى اصحاب الامر ان يسهّلوا لنا السفر الى محلّ شغلنا فيُحضروا لنا قطاراً نركبهُ الى حيث تعيَّن شغلنا من قبل دولتهم فلم نزل نلحّ عليهم حتى اجابوا الى دعوتنا. ولما تحفّزنا الى السفر وعرف الناس أننا اتينا لاسعافهم تعدّدت طلبات المحتاجين لكي نرحمهم في ضنكهم. وكان هناك احد الكرواتيين الكاثوليك الذي ساءت احواله بمصادرة البولشفيك فطلب ان يُنظم في دائرة اشغالنا. فأحلناهُ الى السوفيات الذين لهم وحدهم التصرُّف في تعيين مساعدينا (لهُ تتمّة)

بيروت

تاريخها وآثارها

للاب لويس شيخو اليسوعي

توطئة

لمّا كانت الحرب الكونيّة منتشبة وبيروت تحت رحمة الدولة التركية تعيَّن على كلّ ولايتها رجل ذو حزم وإقدام كخلَف لسامي بكر بك نعني بهِ عزمي بك. فضبط زمام الامر وجرى في حكمهِ بعدل وانصاف. ولولا تحكُّم جمال باشا عليهِ لعلَّهُ كان خفَّف من وطأتهِ ولطَّف نوعاً بعض الفظاظة في طباعهِ (١

١) بينما نحن نرقم هذه الاسطر قد علمنا بالاسف وفاة عزمي بك رحمهُ الله رحمة واسعة